العنوان:	لسان الدين بن الخطيب مؤرخا : دراسة فى كتابه " أعمال الأعلام "
المصدر:	مجلة الرافد 2
الناشر:	حكومة الشارقة - دائرة الثقافة والإعلام
المؤلف الرئيسي:	داهش، محمد علي
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	يونيو
الصفحات:	29 - 40
رقم MD:	756197
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التأريخ
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/756197

لسان الدين بن الخطيب.. مؤرخاً

دراسة في كتابه «أعمال الأعلام»*

د. محمد علي داهش

يّعد لسان الدين بن الخطيب الغرناطي الأندلسي، أحد كبار رجالات العلم في التاريخ والحضارة الإسلامية عامة، وفي تاريخ المغرب الإسلامي خاصة. وكان نتاجه المعرفي، نتاجاً لبيئة علمية مزدهرة وزاخرة بالعطاء في مجالات المعرفة كافة. وكان أيضاً، نتاجاً للتفرد الشخصي الممتلئ بالحيوية والطاقة النفسية والعقلية الواعية لأهمية الزمن في تحصيل المعارف والعلوم، وفي كيفية توظيفها لخدمة المقاصد الإنسانية في العمل الصالح وبناء المجتمع على أسس قويمة، وتعبر عما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان ابن الخطيب في كتابه – موضوع الدراسة - يسعى إلى ترسيخ القيم الايجابية لكل مناحي الحياة، وإبراز التميز في التدوين التاريخي لكي يضع بصمة لا تمحىّ من التاريخ والذاكرة الفردية والجماعية، ويكون علامة مضيئة في مسار التاريخ الإنساني، وفي الفكر والتاريخ والحضارة العربية الإسلامية خاصة.

ولادة ابن الخطيب ونشأته

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي الأندلسي. ولد في مدينة (لوشة) غربي غرناطة في رجب عام 713هـ/1313م. وكان جده سعيد أحد علماء المدينة، يلقي دروسه فيها، فعرف بالخطيب، وعرفت الأسرة باسمه. وبعد انتقال الأسرة إلى غرناطة، تلقى فيها مختلف العلوم النقلية والعقلية على يد كبار علمائها فدرسَ علوم القرآن والحديث والفقه، وعلوم اللغة وآدابها، من نحو وصرف وعلمي البيان والمعاني، فضلاً عن العلوم الأخرى من سياسة وفلسفة وتاريخ وطب وبيطرة ورياضيات وغير ذلك من تراجم وسير وشريعة وأخلاق وتصوف ورحلات وجغرافية وأغذية ونبات وحيوان وموسيقى.

لقد عُرف عنه أنه كان يقضي معظم أوقاته في تحصيل المعارف، فقد أدرك بوعيه النافذ أهمية الزمن في التحصيل الأكثر من المعارف والعلوم، فنضجت مداركه وإمكاناته في مختلف العلوم النقلية والعقلية، وأصبح ذا بيان قوي، وإمكانية في الحوار والنقاش في مختلف



المواضيع، أهلته لأن يكون موضع الاهتمام في دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة. وفي هذه المملكة، برزت مواهبه، وأخذ مكانه بين المسؤولين في ذلك القصر خاصة، وفي إدارة المملكة عامة.

وظائفه في مملكة غرناطة

بعد انتقال أسرته إلى غرناطة، عُيّن والده في ديوان الإنشاء في قصر السلطان أبي الحجاج يوسف (733 – 755هـ/ 1333 - 1354م). ولما استشهد والده في معركة طريف المشهورة (741هـ/1340م)، حلّ لسان الدين بن الخطيب مكانه. فاشتغل تحت رئاسة الوزير أبي الحسن بن الجياب، ثم تولى الوزارة بعد وفاته عام

749هـ/1349م، واستمر فيها حتى مقتل السلطان أبي الحجاج يوسف عام 755هـ/1354م، وولاية خلفه ولده محمد الغني بالله (محمد الخامس).

حظي ابن الخطيب بمكانة رفيعة في عهد السلطان محمد الغني بالله، فقد وثق به وأنعم عليه وجعله كاتم سره، وسفيره إلى الملوك والسلاطين، ونائباً عنه في إدارة المملكة في أثناء غيابه، لما لديه من ثقافة وخبرة وكفاءة في ادارة شؤون القصر والمملكة، وفي كيفية التواصل مع الملوك والسلاطين، حتى لقبه بذي الوزارتين أي (القلم والسيف)، لكن هذه المكانة السامية لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما زالت بعد أن خُلع السلطان محمد الغني بالله بانقلاب قام به أخوه إسماعيل بن يوسف عام 760هـ/1358م وعلى أثرها فرّ الغني بالله إلى مدينة فاس المغربية، والتحق به لسان الدين بن الخطيب، واستقر في مدينة سلا حتى عام 763هـ/1361م. وفي ذلك العام استعاد محمد الغني بالله الملك في غرناطة بمساعدة سلطان المغرب أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني، فاستدعى ابن الخطيب، واستوزره ثانية، وأعاد إليه أملاكه ولقبه، فعظم شأنه أكثر(1)، وكان هذا الاستيزار والمكانة الرفيعة والثروة الطائلة، مثار حسد، وبداية نهاية لابن الخطيب في مملكة غرناطة وفي عهد بني الاحمر.

مقتله

أثارت عودة لسان الدين بن الخطيب، وعلو مكانته، حسد الكثيرين وكرههم، ممن حوله وبخاصة تلميذه ونائبه عبد الله بن زمرك، والقاضي أبا الحسن علي النباهي. وبدأ الاثنان يوغران صدر السلطان محمد الغني بالله، وبدأ الاخير يتغيّر عليه، وأحسّ ابن الخطيب بذلك التغير والمجافاة، فآثر– وهو المعروف باعتداده بنفسه وكبريائه–، أن لا يبقى في مكان غير مرغوب فيه أو يُشك في أمره، أو في ما كتبه وألفه من كتب. وأيقن بوعيه الثاقب، أن النهاية ستداهمه إن لم يرحل بعيداً، فآثر الخروج عام 772هـ/1370م ملتمساً السماح له بأداء فريضة الحج، وهي حجة للعبور إلى الضفة الأخرى من المضيق، حيث أصدقاؤه وأحباؤه، في مملكة بني مرين، فيما راح الوشاة والحساد يواصلون تشويه سمعته وكتاباته(2).

اعتمد حساده في تشويه سمعته عن طريق التشكيك بدينه وإيمانه، وذلك بتأويل فقرات مما ورد في كتابه (روضة التعريف بالحب الشريف) المعروف بكتاب (المحبة) فأولوها على وفق مبتغاهم، وزعموا أن ما فيها يتضمن طعناً بالرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، واتهموه بالمروق عن الدين والإلحاد والزندقة، والقول بالحلول ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين، علاوة على اتهامات أخرى(3). وكانت النتيجة – بعد رحيله عن غرناطة– أن حوكم غيابياً وأدين، فأحرقت مؤلفاته وبحضور جمع غفير من رجالات المملكة والعلماء وغيرهم، وبدأت المطالبة بتسليمه إلى غرناطة.

بعد رحيله عن غرناطة استقر ابن الخطيب في مدينة تلمسان في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز المستنصر بن أبي الحسن المريني (767-774هـ) الذي احتفى به وأكرمه(4)، على الرغم من مطالبة السلطان الغرناطي محمد الغني بالله بتسليمه. وذكر أنه في هذه المدة كان يحرّض السلطان المريني على ضم مملكة غرناطة، وتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي. وكان ذلك الموقف أحد الاسباب الجوهرية أيضاً في النقمة عليه في قصر بني الاحمر. وقد بقي في كنف السلطان المريني حتى وفاته عام 774هـ/1372م، فانتقل المخزن المريني إلى فاس، ورجع معهم ابن الخطيب، وتم تنصيب ولد السلطان المتوفى، الطفل أبي زيان محمد السعيد، وتولى الوصاية عليه الوزير أبو بكر غازي بن الكاس. وفي اثناء ذلك كتب ابن الخطيب كتابه (أعمال الأعلام...) ليبرر سلامة الاختيار لحكم البلاد لمن لم يبلغ الاحتلام. وجدّد السلطان الغرناطي طلبه بتسليم ابن الخطيب أو قتله، إلا أن الوزير أبا بكر غازي رفض طلبه، فدبّر محمد الغني بالله، فتنة أطاحت

بالسلطان الطفل وبوزيره عام 776هـ/1374م، وتربع السلطان أبو العباس أحمد على عرش المغرب(5)، وكانت النتيجة أن وافق السلطان المغربي على طلب السلطان الغرناطي في محاكمة ابن الخطيب في فاس وبحضور الوزير عبد الله بن زمرك. وقد دافع ابن الخطيب عن نفسه بجرأة شَحَذَها عمق إيمانه ومعرفته، ودحض افتراءات خصومه بقوة شخصيته وبيانه وسحر كلامه وبراءته من التهم المنسوبة إليه، لكن القرار كان محسوماً، فسحبوه إلى السجن وتم قتله خنقاً وبمساعدة رجال السلطان المريني في أوائل عام 776هـ/1374م، وهكذا (ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد السياسية الوضيعة)(6)، ثم دفن قرب باب الشريعة الذي سمي بعد ذلك باب المحروق وهو أحد أبواب فاس القديمة.

أسباب التأليف ومقاصده

كتب المؤرخ الكبير لسان الدين بن الخطيب كتابه (أعمال الأعلام...) في ظرف عصيب أملى عليه تقديم هذا الكتاب وبخاصة في جزئه الأول الخاص بالمشرق العربي الإسلامي، بزمن قياسي يندر أن تجد له مثيلاً في تاريخ التدوين التاريخي. فقد كان لاجئاً في المغرب يلتمس طريقاً إلى الحماية من الإدانة التي ألحقها به الوشاة في مملكة غرناطة. فهو يشير في مقدمة كتابه إلى الظروف والبواعث التي قادته إلى ذلك، ويقول إنه عندما توفي السلطان عبد العزيز المريني عام 774هـ/1372م، قام وزيره أبو غازي بتنصيب ولده السعيد سلطاناً على المغرب، وكان لم يبلغ الاحتلام، وقد أثار تنصيبه خصوم الوزير، واتهموه بالتفريط وإهدار مصالح المسلمين، فوضع ابن الخطيب كتابه (أعمال الأعلام...) ليؤكد أن لهذا التنصيب نظائر في التاريخ الإسلامي منذ بداية العصر الأموي وحتى تاريخ عصره(7).. وأكمل الجزء الأول من كتابه في مدة قصيرة جداً، فيقول: (في عشرين يوماً كان الفراغ من هذا الجزء من تبييض وتدوين ونسخ وتكوين، وسراجة وتلوين... حرصاً على تكميل غرض مستدعي جمعه وتعجيلاً لإتحاف سمعه) (8).

وإذا كان السبب في تأليف هذا الكتاب وتقديمه، وفي جزئه الأول على الاقل، لتبرير تنصيب السعيد، إلا أن ابن الخطيب هدف من وراء ذلك إلى مقاصد أخرى أوضحها في مقدمة كتابه، وعلى الرغم مما فيها من تملق وتزلف واضح للسلطة المرينية، إلا أنه أراد أن يضفي على المخزن المريني صورة أجمل بقوله: (ومجلس بهر في جماله، وراق في اكتماله، ومحسن رأيت إكمال محاسنه الفائقة، وإغفال مزاينه الرائقة)، وقد رأى أن في عدم الإشارة والإشادة بالمخزن المريني وتدوين ذلك (غمطاً للحقوق المتعينة، وطمساً لرسوم الفضائل البينة...) (9). إن ابن الخطيب لم يقف عند هذين العاملين، بل راح يستدرك بالقول، ويعود إلى جوهر مقاصده في التدوين التاريخي عندما أشار إلى أنه (نداء لزم جوابه وقَصْدٌ رجى من الله ثوابه، لما يلهم من شكر الذي تأكد ايجابه) (10). إذن، كان تسويغ تعيين السعيد والاشادة به وبوالده، وتجميل صورة الحكم المريني، وتثبيت الحقائق التاريخية الصحيحة تقرباً إلى الله وكسباً لمرضاته، هي الأسباب الظاهرة وراء تأليف هذا الكتاب، وبقي من الأسباب الكامنة، السعي إلى كسب الحماية واستمرار رفض مطالب السلطان الغرناطي، ودوام الاستقرار في المغرب في عيشة هادئة منعمة.

التعريف بكتابه (أعمال الأعلام...)

برع لسان الدين ابن الخطيب في علوم متنوعة، وبلغت مؤلفاته نحو ستين كتاباً بين مطبوع ومخطوط ومفقود. ويهمنا في هذا المجال، ابن الخطيب المؤرخ و(مجموعته التاريخية) (11)، وعلى الاخص كتابه ذو الاجزاء الثلاثة (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام). وهذا الكتاب هو آخر ما كتبه في المغرب من مجموعته التاريخية، وهو كتاب تاريخي محض، لأنه ليس فيه جنوح نحو تدوين معلومات غير تاريخية أوردها في كتبه الأخرى، ولا استخدام لغة أدبية، إذ ركّز على الشخوص والأحداث بشكل متسلسل متتابع زمنياً وبإيجاز لا يخل بتقديم الصورة المعبّرة عن الشخصيات والأحداث. وقدّم ابن

الخطيب في هذا الكتاب مادة تاريخية عامة منذ بداية عهد الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن الاول للهجرة/ السابع للميلاد، وحتى تاريخ عصره في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. واذا كانت أغلب كتبه قد دوّنت التاريخ المحلي (الأندلس) والاقليمي (المغاربي)، فإن كتاب (أعمال الأعلام...) أخذ مساحة زمنية ومكانية واسعة شملت أقصى المشرق العربي الإسلامي إلى أقصى مغربه. وهذا يؤكد معرفته الواسعة في التاريخ الإسلامي طوال الثمانية قرون، وما يؤكد رغبته أيضاً في التميز عن غيره من مؤرخي عصره أو الذين سبقوه، في الانطلاق من المحلية والإقليمية إلى الدائرة الأوسع، حيث المجال الإسلامي الأرحب، لتعريف القارئ الأندلسي والمغاربي بتاريخ المشرق، أي أنه أراد أن يقدم رؤية مغاربية للمشرق العربي الإسلامي مثلما هي لتاريخ المغرب الإسلامي حتى الحقبة التي عاشها في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.

يقع الكتاب في أجزاء ثلاثة، خصص الجزء الأول منه – وهو موضوع الدراسة – للحديث عن تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ عصر النبوة مروراً بعصر الخلفاء الراشدين، ثم الدول التي أعقبتهم، بداية من الأمويين والعباسيين، والدول التي نشأت في المشرق العربي الإسلامي كافة، إبّان حقبة العباسيين حتى قيام دولة المماليك في مصر والشام والحجاز والى منتصف القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. وفي جزئه الثاني، دوّن تاريخ الأندلس حتى قيام دولة بني نصر (بني الاحمر) وعصر محمد الغني بالله، في حين دّون في الجزء الثالث كل ما يتعلق بتاريخ افريقية – تونس – والمغرب، منذ قيام دولة الأغالبة حتى عهد الموحدين، ولم يستطع إكماله للحقبة التي عاشها لما أصابه من محنة أودت بحياته.

إن هذا المؤلف التاريخي الضخم، يمكن أن يوصف (بأنه الكتاب الوحيد بين مؤلفات ابن الخطيب الذي يمكن أن تسبغ عليه الصفة التاريخية المحضة، فهو في الواقع تاريخ عام للدول الإسلامية في المشرق والمغرب)(12).

اعتمد ابن الخطيب في تدوين كتابه (أعمال الأعلام...) على ما كان في متناول يده من كتب تاريخية عن (البلاد المشرقية إلى برقة... وما بلغ إليه علمنا في الوقت بين خفيف ولفيف، وقوي الكلام وضعيف)، ويعتذر عما فاته أو نسيه بقوله: (والعذر عن التقصير غير خفي، ويرفع للجناح لي من تعذر الكتب بعد ان عاث في خزائنها الزمان)، ولم يغفل سنوات محنته وشيخوخته بعد هروبه من الأندلس، مؤكداً أن نقص المعلومات يعود إلى (تشتيت الفكر الذي اقتسمه الخوف والأمان، وكلال الجوارح بعد أن استرد قوة الشبيبة الرحمن)(13)، وفي معرض تبريره للإيجاز في المعلومات التي أوردها في الكتاب، أكد إن الإيجاز الموفي بالغرض أفضل من الاطناب الذي لا مبرر له وبخاصة لما هو معروف، وفي ذلك يقول: (إنني متى عثرت بالغرض المطلوب سامحت القلم في الإكثار، ليعلم أن ما سواه مذكور بحسب الاجترار)(14)، ومع ذلك يعترف بان ما جاء في الكتاب الخاص بالمشرق العربي الإسلامي لا يعني الاحاطة الكاملة بمجمل الأحداث والوقائع وشخوصها، إنما اكتفى بما حوته الذاكرة وما دوّنته على قدر الاستطاعة والاستيعاب، إذ يقول: (ولا ندعي الإحاطة بالأمور، ولا استيعاب حوادث الدهور إنما نأتي بجهد المقدور) (15). وعلى الرغم من هذا الرأي المتواضع إلا أن قراءة هذا العمل التاريخي تعطي الانطباع بأنه يشكل عصارة تاريخ المشرق العربي الإسلامي وجوهره، لأنه دوّن فيه مقاصده من كتابة التاريخ، وآراءَه في كيفية التعامل مع حقائق التاريخ والمنطلقات الأساسية لهذا في تدوين التاريخ.

منهجيته العامة في كتابة التاريخ

يقدم لنا المؤرخ لسان الدين بن الخطيب منهجيته في فهم التاريخ وكتابته، بما جاء في مقدمة كتابه (أعمال الأعلام...)، هي (نظرته الواضحة في أن التاريخ يجب أن لا يقتصر على الحياة السياسية لبلد أو أسرة ما...)، وإنما يشمل مختلف جوانب الحياة المادية والمعنوية، وهذا يلاحظ في كتابيه (الإحاطة) و(اللمحة البدرية)،

وله كذلك خاصية في كتابة التاريخ تقوم على (التثبت والتحقق)، كما يلاحظ فيما كتبه عن تاريخ عصره، أو فيما كتبه في كتابه (أعمال الأعلام...)(16).

يؤكد ابن الخطيب أن كتابة التاريخ تؤرخ للتواصل البشري وللفضائل والقيم التي عبّرت عن إنسانية الإنسان، وخلّدت مآثره وإنجازاته المادية والمعنوية. وفي ضوء ما جاء في كتابه (أعمال الأعلام...) من فهم لـ (الفن التاريخي)، يؤكد ابن الخطيب أنه تواصل النوع الإنساني، ومعرفة بالأنساب، وتواصل الخبرات، والتبصر بالأحوال، والاتعاظ من التجارب في حالة الدعة والاستقرار(17)، ويستشهد بآيات القرآن الكريم، وما جاء فيه من قصص عن الاقوام السابقة لكي يتعظ بها(العاقل) والمتجبّر. وعليه، فإن فهم ابن الخطيب للتاريخ كما يوجزه عنان، أنه: (وسيلة لتدوين حوادث الماضي لتعتبر بعظاتها الاجيال اللاحقة) (18)، لكن الاستقراء الدقيق لكتابه (أعمال الأعلام...) يوضح جوانب أخرى مهمة.

إن ما كتبه ابن الخطيب في مقدمته للكتاب عن (فن التاريخ)، وما قدمه من رؤية في فهم التاريخ تتجاوز هذا التبسيط، ذلك أن القراءة المتمعنة للسرد التاريخي الذي قدمه عن الافراد والدول في المشرق العربي الإسلامي، تتجاوز التدوين التاريخي العادي لحياة القادة والشعوب. ففي سرده التاريخي يبدو الانتقاء والإبراز لمحطات مهمة ومعبرة من حياة الأعلام، مثلما ينتقي بعض المحطات (السلبية) في حياة البعض منهم. وعلى العموم، كان التأكيد على الجوانب الإيجابية التي تتمثّل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة باعتبارهما محركين أساسيين للحياة العربية والإسلامية منذ بداية الهجرة النبوية وحتى نهاية البشرية. فضلاً عن التأكيد على ضرورة وحدة المسلمين لتقوية الموقف لمجابهة الكفار (المغول والتتر) والصليبيين، والعدالة في التعامل مع الشعوب، وغير ذلك مثل الانجازات المادية تخليداً للأعلام وخدمة للشعوب. إن وعيه العميق بطبيعة المرحلة التي كان يعيشها، جاء لسعة اطلاعه على طبيعة الوضع السياسي الإسلامي، إذ أكسبته تجربته السياسية الطويلة، معرفة عميقة بدواخل الامور التي تجري حول مملكة غرناطة، وحول مستقبل الوجود الإسلامي في الجزيرة الأيبيرية، فقد كان (سياسياً بعيد النظر، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الاهواء، وأضنته الفتنة، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن)(19).

إن الحديث عن (فن التاريخ) وما فيه من المقاصد الدنيوية والأخروية، كما يرى ابن الخطيب، فيه الكثير الذي يخدم الإنسان في حاضره ومستقبله. ففي فقرة (شرف التاريخ) يكاد يوجز كل ما كتبه في مقدمة كتابه عندما يؤكد أن كتابة التاريخ شرف لمن نهض بها، إذ غايتها صلاح الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول: (كان هذا المنقول الذي علقنا به صلاح الدنيا والآخرة، يرجع باجناس ما يكتب ويلقب إلى فن التاريخ)(20)، الذي يجب ان نسترشد بأحداثه ووقائعه، نأخذ منها في دنيانا (الاعتبار والاستبصار منها، والاتعاظ والازدهار والتأسي بحوادث الليل والنهار) (21).

إن (فن التاريخ) كما وصفه ابن الخطيب، منوط بالكتابة عن حياة الدول والشعوب واعلامها وانجازاتهم، فبفضلها يدوّن التاريخ، لذلك الهم الله الإنسان الكتابة التي يعتاض بها عن النطق، فهي انسب للثقة، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: (... وأما الكتاب، وهو أشرف ما ناب عن النطق والكلام، واشد امانة على اداء ما يراد منه اداؤه، فقلّ ان يتحفّهُ أو ينقصه أو يخونه بحاله ويبلغه بكماله...) (22)، وضرب لذلك مثلاً في أهمية كتابة التاريخ، من الكتب التي ارّخت لسيرة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث يكفي (شرفاً) التاريخ، انه كان اداة لتدوين السيرة النبوية. ومن جانب آخر، جعل من التاريخ الأصل الذي يتفرع عنه تفسير الكتاب الكريم، بما يعنيه ذلك من إضاءة لمناسبة نزول النص القرآني، وما يتعلق بالسياق الاجتماعي والثقافي

الذي يعين على تفسير الكتاب والسنة النبوية. ويؤكد ابن الخطيب في هذا المجال على ان التاريخ هو (الأصل الذي يتفرع عنه تفسير الكتاب والسنة والتنبيه على ناسخها ومنسوخها، وغريبها، ومعرفة رجالها...)(23).

وفي سياق التدوين التاريخي يؤكد على أهمية نزاهة المؤرخ وأمانته، وأن لا يخضع ولا يستسلم لغائلة الحاجة والهوى فيما يخص الحديث عن الدول، وفي مقدمة الكتاب، يؤكد على (الانصاف) وعلى ذكر (جميل الأوصاف فإن النفس تميل لأغراضها وتجنح لافتراضها... مطاوعة لعلل القلوب وأمراضها، ولاسيما في شأن الدول...)(24).

وينتهي ابن الخطيب إلى القول أن فهم التاريخ وأهميته في حاضر الشعوب ومستقبلها، معناه معرفتهم (تاريخ الأمم الخالية والأجيال الماضية، والرسل المنبعثة، والمثلات الواعظة، ما يبشر به عمدة الدين، وسبيل من سبل المهتدين)(25). وإذا كان ذلك قد جاء لتحقيق الفهم الجماعي، فإنه على الصعيد الفردي، فيه الكثير مما يزيد في وعي الإنسان بماضي الاجيال، فنقتدي بسلوكهم الحسن، واعمالهم المثمرات وآداب الكلام، والابتعاد عن كل ما يشوب السلوك واللسان مما يثير الاستهجان والمذمة، وفي ذلك يقول، ان مطالعة التاريخ تزيد (من خلق جميل وسيرة حسنة، وعلاج فرح واعداد أمر، واتيان محمدة، واجتناب مذمة، وانس مجلس، واستحضار حجة، وازديان بأدب، وتمسك من الكمال بسبب)(26). وفي ضوء ذلك نستقرئ فهمه للتاريخ، انه يقوم على تحقيق (النموذج) في السلوك الإنساني، والبحث عن مجتمع يخلو من المعايب والسلوك الشائن، وهذا يرتبط في جوهره بالتمسك بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، ومن سار على هديهما في اقواله وافعاله. وفي هذا المجال قال [(وقد ورد في كتاب الله جل جلاله من اطراء فن التاريخ ما فيه مفخرة لأصله وشرف لمن آثر سبله(27)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾(28).

وفي ضوء هذا التفسير والفهم الديني والأخلاقي لأهمية التاريخ ودوره في بناء الحياة الإنسانية، رأى ان التاريخ عند المسلمين يبدأ مع بزوغ الإسلام، واعتماد الهجرة النبوية بداية التاريخ الإسلامي، لأنها شكلت علامة فارقة بين عهدين، عهد الجاهلية والايمان، والظلام والنور، والظلم والعدل، والمعرفة والجهل، والتوحش والإنسانية، والشرك والتوحيد.

وبعد ان يستعرض كيف أرّخت الأقوام من العرب ومن غير العرب من الاقوام التي سبقت أو عاصرت مجيء الإسلام، يقول وبفخر، بان تاريخناً بدأ بالإسلام وطويت صفحة التواريخ السابقة التي كان يبدأ بها العرب تواريخهم، بدا التاريخ الإسلامي بالهجرة النبوية، وهذا هو رأي جميع المؤرخين المسلمين، حيث قال: (نسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ مقدم، فأمن وقع الخلاف الواقع في تواريخ الامم، وجبّت الهجرة ما قبلها جبّ الانوار للظلم، ورفع الله بعضهم ببعض، واستدار الزمن كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، ووقتت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به امر الإسلام ويومه الذي ما ولدت الليالي مثله من بينها الأيام، وعامها العام والخاص بالفضل، وكل بعده يُعد من عوام الأعوام)(29). ويبدو ان الاعتزاز بالهجرة النبوية بداية للتاريخ الإسلامي جعله لا يشير الى تاريخ العرب قبل الإسلام.

منهجه في كتابه تاريخ المشرق العربي الإسلامي

اعتمد ابن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام...) على ما يسمى (المنهج الوصفي)، الذي يقوم على عرض التطورات التاريخية على وفق التحقيب الزمني المتتابع حسب تسلسل الاعلام والأحداث، وقام تدوينه للأحداث على الإيجاز حتى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ثم يتوسع قليلاً قليلاً في الاحداث في الحقبة اللاحقة في القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. ولا يخلو الكتاب من آراء ونظرات نقدية. وفي هذا الكتاب، لم يورد ابن الخطيب الإسناد عن الحوادث والشخوص والاعمال من المؤرخين الذين سبقوه، وإنما اعتمد على ما في ذاكرته عن الأحداث التاريخية، وهي نقطة ضعف في التدوين التاريخي، لكنها تدلل على غزارة معرفته التاريخية،

والزمن القياسي الذي كتب فيه الكتاب وقدمه الى السلطان المريني يؤشر ذلك. ومن جانب آخر حاول دوماً إبراز الجوانب الايجابية في حياة الاعلام، وبخاصة الافعال الجهادية المرتبطة بالدفاع عن ديار الإسلام ضد الروم والمغول والتتار والصليبيين.

وعلى الرغم من الإيجاز، وعدم الرجوع إلى المصادر التاريخية، الا أن ابن الخطيب يعطي لنفسه الأفضلية على من سبقه أو عاصره، ذلك ان سعة معرفته التاريخية، ومقاصده من الكتابة التاريخية جعلته يعطي لنفسه هذه الارجحية على نظرائه (انا – قولي – قلت)، لان ما كتبه – في رأيه – يُعد الاكثر دقة وتوثيقاً والأكثر تداولاً مع مرور الأيام، فيقول مفاخراً بنفسه (بل حقي من حقوقهم أَوْجَهْ وأَوجب، وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب، وهو من رماحهم أقصى وأخطب... وآثار السيف تبرأ وآثاري من الذكر لا تمحى ولا تخمد... فكل خبر خبّر به غيري يموت وينقطع به الأثر بانقطاع صوته، والذي أخبّر به انا سيد روض يزهر إذا أقلعت الأيام سحباً، ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً، وقولي يذكر، وينسى كل فعل فاعله، لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه... فميزة الكتب تهب الاعمار الثانية وتفاخر الألسن القائلة بها والأيدي الكاتبة الفانية...)(30). وإذا كان الايجاز، وعدم الاسناد، وابراز المحطات الايجابية، والمفاخرة بالنفس، والتأكيد على (الانصاف) تشكل المنهجية العامة لكتابه، فإن هناك منهجية خاصة لكل حقبة من الحقب التي دوّن تاريخها، لكنها تعبر عن الإطار العام للمنهج الذي اعتمده المؤرخ الكبير لسان الدين بن الخطيب.

أ– منهجه في عرض السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين:

اعتمد ابن الخطيب في هذا الكتاب، وفي كتابة السيرة النبوية، أو حياة الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) وما يتصل بها من أقوال وأفعال على الإيجاز المفرط في سرد المعلومات (صفحتان)، ودون الاسناد إلى أحد من المحدثين أو المؤرخين القدامى الذين عاصروا الأحداث أو كانوا قريبين منها، وهذا الإيجاز التام اقتصر على الأشهر الأخيرة من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى خطبة حجة الوداع على الدقة الأكثر، وما جاء فيها من تأكيد على التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

وقام سرده التاريخي لعصر الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) على الإيجاز ايضاً (عشر صفحات)، والملاحظ في عرض المادة التاريخية في الكتاب، افتقادها للإسناد إلى احد من المؤرخين القدامى بالاسم والتعيين، ويسرد ابن الخطيب المعلومات عن الخلفاء الراشدين عن طريق (وقالوا...) و(قال المؤرخ...) و(ذكر) و(من المأثور عنه) و(روى)(31). وهذا يدلل على انه استعمل هذه المفردات ليشير بها إلى مؤلفات وروايات وقف عليها.

ب– منهجه في كتابة تاريخ (دولة بني أمية):

جاء السرد التاريخي عن (دولة بين أمية) انطلاقاً من منهجه القائم على الايجاز فيما هو معروف من التواريخ المشهورة التي لا تقتضي (شرحاً وبسطاً)(32). كما جاء سرده للمعلومات عن الخلفاء وأعمالهم والأوضاع التي كانت قائمة من بداية عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وحتى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، بدون الاعتماد على الاسانيد أو المراجع التاريخية المعروفة، وهي ايضاً نقطة سلبية تؤشر على سرده التاريخي للمعلومات، وكثيراً ما يروي الأحداث بقوله (وقيل) و(ذكر نقلة الاخبار) و(قال المؤرخ) و(على ما حدّثنا به شيوخنا) و(قال بعض أصحابنا) و(فذكر) و(حكاه غير واحد من المؤرخين)(33)، حتى إذا ما وصل إلى (دولة سليمان بن عبد الملك) أشار بالإسناد كأن يقول (قال المسعودي في التاريخ)، أو إسناد روايته إلى أبي الفرج الاصفهاني والمدائني والطبري. وجاء هذا الإسناد ليؤكد تثبت ابن الخطيب وتحققه من الرواية التي أوردها.

وفي معرض السرد التاريخي للأحداث حتى نهاية (دولة بني أمية) يذكرنا ابن الخطيب في هذه الحقبة، – كما سيذكرنا دوماً في كتابه– عن مَنْ عهد إليهم بالبيعة قبل الإحتلام، وهنا بيت القصيد، إذ يبدأ بذكر

من تولى السلطة ممن لم يبلغ الاحتلام، ويستشهد على ذلك برجالات العصر الأموي آنذاك، ومن الصحابة أو التابعين، فقد ذكر ابن الخطيب نقلاً عن الطبري، ليؤكد الرواية ويثبتها، ان الوليد اخذ (البيعة لابنيه الحكم وعثمان وتصير الخلافة إليهما وهما صبيان صغيران لم يبلغا) وذكر ابن الخطيب (تمت البيعة لهذين الوليدين الصغيرين وكانا لم يقاربا الاحتلام، فما امتنع عليهما احد...) ومن تأييد هذا الأجراء، واعطائه المشروعية، مثلما كانت في تاريخ مضى، اكد ابن الخطيب، عدم امتناع كبار رجالات بني امية عن هذا الإجراء، فقد كان (الجيل موفور من اعمامهما وابناء اعمامهما بني عبد الملك بن مروان وسواهم، وذلك مشهور في كتب التاريخ) (34)، كما أورد عدداً من أسماء الأعلام من المحدّثين الذين عاصروا تلك البيعة لتأكيد ذلك، منهم محمد بن شهاب الزهري، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريح، وابن إسحاق بن يسار، والامام الاوزاعي، وزيد بن اسلم مولى عمر بن الخطاب، وسفيان الثوري، ومالك بن انس وغيرهم رضي الله عنهم(35).

وعلى الرغم من النقدات الموجهة إلى بعض خلفاء دولة بني أمية، من الذين ابتعدوا عن (وشمة السلف) (36)، يؤكد بقوله (وكانت هذه الدولة الأموية اوسع الدول الإسلامية خطة لاشتمال ملكها على المغرب والأندلس بما لم يكن لغيرها من بعدها، وكان من مفاخرها معاوية وعمر بن عبد العزيز وكفى) (37).

ج- منهجه في كتابة تاريخ (دولة بني العباس):

منذ البداية يوضح ابن الخطيب منهجه في السرد التاريخي عن خلفاء الدولة العباسية، وهذا المنهج قائم (على سبيل الاختصار)(38)، كما هو حاصل في معرض حديثه عن من سبقهم، وقليلاً ما يعلق على بعض الحالات، كأن يقول: (قلت...)(39)، وهذا الاختصار لا يخل بالصورة المعبرة عن تاريخ الدولة العباسية منذ بداية الدعوة العباسية وحتى نهاية الدولة، إذ أن ما يعرف عن مشاهير خلفائها الكثير كما ورد في كتب التاريخ التي اطلع عليها، ولهذا فهو يقول: (نحن لا نستكثر ذكر الشهير)(40). وفي معرض سرده التاريخي عن الأحداث، كان احياناً يحيل إلى المصادر ما يريد تثبيت صحته وتحققه أو ما لا يقتنع به أحياناً أخرى، كأن يقول (حدّث يحيى بن اكثم فقال)(41)، و(ذكر الجوزي في تاريخ بغداد)(42)، و(حكى الجوزي)(43)، و(ذكر ذلك المسعودي صاحب المروج)(44).

لقد تطرق بإيجاز إلى الأحداث التاريخية منذ بداية أول خلفاء الدولة العباسية (أبو العباس السفاح) مروراً بمن خلفه، حتى اذا ما وصل إلى الخليفة هارون الرشيد، اطال الحديث عنه نوعاً ما، مذكراً بأسباب تأليف هذا الكتاب عندما يذكر ان الرشيد اخذ البيعة لأبنائه الثلاثة، الأمين والمأمون والمؤتمن قبل الاحتلام، وأكد أن (الرشيد كان أول بني العباس الذين سلكوا في ذلك المسلك ثم تبعه من بعده)(45)، حتى إذا وصل إلى الخليفة المعتصم، قال عنه (وكانت ولايته ذروة الدولة العباسية ومن بعده أخذت في الاضمحلال وطوي بساط الجهاد في سبيل الله والقتال)(46)، ثم أعقبه الواثق الذي (جعل مقاليد أموره بيد العجم، فأخذت الدولة العربية في ... [طمس في المخطوط] رسمها عمل قليل)(47). وحين يواصل سرد الأحداث، يذكرنا دوماً بان العديد من خلفاء بني العباس استلموا مقاليد الأمور قبل بلوغ سن الاحتلام، ويذكر إلى جانب الأمين والمأمون والمؤتمن، موسى بن الأمين، والمنتصر، والمعتز، والمؤيد، ثم المقتدر بن المعتضد، وهم ثمانية وليس سبعة كما ذكر في كتابه.

لقد تابع سرده التاريخي عن الخلفاء العباسيين والأحداث التي وقعت في بلادهم مع مجيئ البويهيين والسلاجقة، وتسلط العناصر المماليكية على مقاليد الولايات في الدولة العباسية، ويصل بنا إلى آخر خلفاء بني العباس وهو المستعصم بالله أبو احمد عبد الله بن المستنصر، الذي في عهده غزا هولاكو مدينة بغداد واستباحها، وبسقوطها بيد المغول والتتار (انقرضت دولة الإسلام في العراق واستولى عليها التتار...)(48). ثم يشير في النهاية، وبشيء من المدح والزهو، ان دولتا بني امية وبني العباس (اكبر دول الإسلام من جهة الزمان والمكان ورفعة الشأن وفضل الزمان) لكنه يعيب عليهما الممارسات السلبية لبعض ولاة الأمور فيهما

والتي أدت إلى ضعفهما (حتى استولى التتر على ملوك الإسلام واستأثروا بمدينة السلام)(49).

والجدير بالذكر أن لسان الدين بن الخطيب وهو يتابع الأحداث السياسية وتطور الأوضاع الداخلية في ضوء التسلسل الزمني للأحداث وحسب تولي الخلفاء في عهد بني العباس، لم يغفل الإشارة إلى شعر بعض الشعراء الكبار أمثال (المتنبي وأبو فراس الحمداني وغيرهم الكثير) الذين أرّخوا بقصائدهم بعض الأحداث، كما لم يغفل الإشارة إلى أسماء أعلام ذلك العصر من العلماء والقضاة والقراء والصوفية وغير ذلك، وفي ذلك تأريخ لنوابغ ذلك العصر.

د- منهجه في الكتابة عن تاريخ المماليك عامة:

وفي معرض سرده التاريخي عن الإمارات التي ظهرت ابان حكم الدولة العباسية، وعن (المماليك) الذين استجلبوا لخدمة الخلفاء والسلاطين والأمراء في دولة بني العباس، أشار إلى الأتراك والديلم والغز والتتر وغيرهم ابتداءً من خلافة المعتصم، وكيف بدأوا يسيطرون على مقاليد الأمور مع مرور السنوات. ويبتدئ مع دولة الديلم من بني بويه وكيف قدموا من بلاد فارس وسيطروا على بغداد وكان قائدهم (كما تحدث الناس أنه يريد تشتيت الدولة... وكان يروم ان يعيد دولة الاعاجم ويبطل دولة ملك العرب)(50)، ثم يتابع حديثه باسهاب عن دولة بني بويه ثم السلاجقة من بعدهم، معتمداً في ذلك على المصادر التاريخية باسمها الصريح تارة أمثال (الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام) و(حكى الهمداني) وعن (عماد الدين بن كثير في تاريخه الكبير) وعن (هبة الله مبارك السقطي في تاريخه)، وأحياناً بدون ذكر المرجع التاريخي، إذ يقول (قال المؤرخ)(51).

ثم يعود للحديث عن (دولة بني حمدان) ويبرز بطولاتهم في الدفاع عن الخلافة العباسية وعن ديار الإسلام ضد الروم، ويستشهد بأقوال عدد من المؤرخين أمثال الطبري والرحالة ابن جبير، ومن القواد سيف الدولة الحمداني، ومن الشعراء المتنبي، وابن نباتة، وأبو فراس، ويثني على دور بني حمدان الجهادي وانتصاراتهم المتتالية على الروم، وفي ذلك يستشهد بقول أبي مروان الثعالبي عن بني حمدان: (كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، وجوههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأكفهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسادتهم وواسطة قلادتهم، وكانوا عدة الزمن البهيم، وعماد الإسلام ومن به، سداد الثغور، وسداد الأمور... وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار، وتحسم شرهم المثار، وتحسِّن في الأيام الآثار...)(52).

وبالمنهج نفسه يتابع الحديث عن دولة بني طولون، والاخشيد، والعبيديين، ويعتمد في ذلك على المراجع المشرقية، من الطبري وابي الفرج، وقد لا يذكر المصدر ويكتفي بالقول: (وقال بعضهم) و(قيل) و(قالوا)، و(مما نقله الناس)(53)، ويشيد ببعض الأمراء الذين راعوا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله أمثال أحمد بن طولون الذي قدم خدمات جليلة للمسلمين.

وعندما يتحدث عن دولة العبيديين الذين حكموا مصر وافريقية والشام، يعتمد في ذلك على شمس الدين بن خلكان وعماد الدين بن كثير وابن الجوزي(54)، ثم يتابع الحديث عن العبيديين حتى نهاية عهدهم في زمن العاضد بن الظاهر عام 576هـ. ومن الجدير بالذكر أنه بسرده التاريخي بعد حقبة الحاكم بأمر الله، لا يشير إلى مصدر من المصادر التي استقى منها كلامه سوى ما جاء في آخر زمن العاضد عن (أبي شامة في تاريخه) وكان ذلك عن حادثة بركانية في المدينة المنورة، ويبدو أنه لم يرغب في تصديقها. ثم يتابع السرد التاريخي عن السلاطين والأمراء من المماليك (الغُزّ والأتراك) الذين حكموا في ظل دولة العباسيين، وهم كل من الدولة الزنكية في الموصل وحلب والشام، ثم الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام والحجاز، ثم المماليك في مصر والشام والحجاز ايضاً. وهنا يورد الأحداث باختصار، وكل ذلك (منقول من مختصر البرق) وعن (ابن جبير) وعن (العماد الاصفهاني). وهنا يعود للتذكير بان نور الدين بن محمود زنكي، بويع بالسلطنة و(كان يومئذ صبياً لم يبلغ الاحتلام). ثم يشيد بدور صلاح الدين

الايوبي في نهاية القرن السادس للهجرة وتثبيت الحكم في مصر بعد انتهاء دولة العبيديين، وكيف وحّد الجبهة الإسلامية مع الشام، ودافع عن بلاد العرب والإسلام ضد الغزو الصليبي، معتمداً في ذلك على ما ذكره (أبو الحسن بن جبير)، وما حدثه به شيخه (أبو الحسن ابن الجياب رحمه **الله**) و(الأخباريون)(55)، وهنا يطيل الحديث عن صلاح الدين، إعجاباً به، وفخراً بمنجزاته وبخاصة تحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، وكان ذلك بعد أن جمع المسلمين تحت لوائه، ووحدهم بعد تفرق وتطاحن(56)، وأعزهم بعد ضعف وذلة، ليتعظ بذلك سلاطين عصره وأمراؤه، وليحذوا حذو صلاح الدين في مقاومة الغزو الصليبي على بلاد الأندلس.

وفي حديثه عن الأيوبيين اعتمد على المصادر التي وثق بها في تدوينه أحداث تلك الحقبة لكنه لم يشر إليها، واكتفى بالقول: (واستندنا في ذلك إلى من يوثق به في المعرفة بملوك بلاده)(57). ومنذ هذه الحقبة بدأ يعتمد في سرد المعلومات التاريخية عن دويلات وسلاطين وأمراء المشرق العربي الإسلامي على المعاصرين له، والذين اعتمدوا بدورهم على شيوخهم، ونقل هؤلاء عن شيوخهم، فهو يقول: (حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب رحمه **الله** عن شيوخه) و(حكى أبو الحسن بن سعيد الامام الرحال)، و(قال صاحبنا أبو العباس بن أبي حجلة)، و(قال القاضي شهاب الدين بن فضل **الله**) (58)، وهذا يعني أنه بدأ يعتمد على شيوخه المعاصرين للحقب التي سبقته بقليل والذين اعتمدوا على شيوخهم المعاصرين للأحداث التي بدأ يتحدث عنها من نهاية القرن السادس للهجرة ومطلع القرن السابع للهجرة/ الثاني عشر ومطلع الثالث عشر للميلاد ولاحقاً.
ويتابع ابن الخطيب الحديث عن نهاية الأيوبيين، وبداية عهد المماليك في منتصف القرن السابع للهجرة (648هـ/1249م) وحكمهم لبلاد مصر والشام والحجاز، ولم يغفل التذكير (وهو من المشترط ذكره ممن بويع قبل الاحتلام من الإسلام) بالمماليك الذين تولوا السلطة قبل بلوغ الاحتلام ومنهم (الملك العادل شلامش ين الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس) و(الملك الصالح بن قلاوون) و(الملك الناصر محمد بن قلاوون) و(الملك الاشرف كجك) و(الملك شعبان بن حسن)(59).

وفي الحديث عن تطورات الأحداث وتحديداً في عهد المماليك منذ نهاية القرن السابع للهجرة ومطلع القرن الثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، نراه يركز في معلوماته على المعاصرين له من المؤرخين، أو من معلوماته الخاصة، بحكم استيزاره لمدة طويلة في مملكة غرناطة وخبرته بالعلاقات الدولية من خلال مراسلاته مع سلاطين وملوك تلك المرحلة، من المسلمين وغير المسلمين، فهو يستقي معلومته من مؤرخ معاصر له وعاصر أحداث المماليك في المرحلة نفسها هو الأديب أبو العباس في كتابه (السكردان)(60)، فضلاً عن ما يصل اليه من معلومات من أهالي البلاد عن أحوال المماليك حين يقول (قال المخبرون)(61)، كذلك ويعتمد على (صاحبنا) خالد بن عيسى البلوي القنتوري المتوفى سنة 765هـ/1364م في رحلته التي سماها (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) (62)، كما اعتمد في سرد أحداث تلك الحقبة المعاصرة له على منْ (تعاطى التاريخ من أهل المغرب، استحشد فيه واستكثر، وألمّ بذكر هؤلاء المماليك، فكتب فيما كتبنا من أخبارهم إلى هذا التاريخ) (63)، أي حتى عام 746هـ/1345م، وعلى من يثق بكلامهم عن الأحداث، كقوله: (فلقد ذكر لي بعض الشيوخ)(64). وأيضاً ما ذكر عن مكة والمدينة، فيقول: (هكذا تلقيناه في هذه الايام ممن يحسن الظن بنقله)(65). وفي الوقت نفسه، كانت له نظرة نقدية للكتب التي استقى منها المعلومات، فهو حين يشك أو لا يقتنع بوجهة نظر المؤرخ لا ينقل عنه، فهو يقول: (وقد كنت وقفت... على كتاب انفرد بمجمل من هذه الغزاة ومفصلها- الملك الناصر 692هـ/1293م- من تأليف المحدث جار **الله** أبي اليمن ابن عساكر رحمه **الله**، بَعُدَ عهدي به الآن، بحيث لا أثق بالنقل عنه)(66). ولم يغفل ابن الخطيب الإشارة إلى الأعمال الجهادية لبعض سلاطين المماليك ضد المغول

والتتار، أو ضد بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام، فضلاً عن الإشادة بالمنجزات الحضارية للبعض منهم. كما يذكر العشرات بل المئات من أعلام المشرق العربي الإسلامي عامة، ومصر خاصة، في مدة حكم المماليك حتى الحقبة التي عاصرها(67)، في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.

الخاتمة:

كان منهج لسان الدين ابن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام...) منهجاً وصفياً تتخلله آراء ونظرات نقدية في السرد التاريخي، وإن كتابه وفي جزئه الأول الخاص بالمشرق العربي الإسلامي، وعلى الرغم من المساحة الزمنية والمكانية الواسعة التي كتب عنها (8 قرون)، وسعة اطلاعه، وتأكيده على نزاهة المؤرخ، وإبرازه لمحطات ذات قيمة إيجابية في تنوير الحاضر الذي كان يعيشه، وفي التنبيه عن الخاطر التي تحدق في المستقبل المنظور للوجود الإسلامي في الأندلس، واعتداده بنفسه في التدوين التاريخي، إلا أن الإيجاز المفرط، وعدم الاستناد إلى المصادر التاريخية القديمة والموثوقة، أو نسيانه للمعلومات بحكم الظروف الصعبة وشيخوخته – كما ذكر عن نفسه– أضعف نوعاً ما المعلومات التي سردها في كتابه، وبخاصة عن أحداث القرون الستة الأولى، على الرغم من قيمتها التاريخية المعروفة.

وتبقى قضية تبرير استلام من لم يبلغ الاحتلام للسلطة وقيادة المجتمع، بحد ذاتها، قضية جوهرية تكفي لإضعاف موقف ابن الخطيب كمؤرخ وليس القيمة الحقيقية لهذا الكتاب التاريخي الكبير، لأنه يتجاوز على الصفات والمؤهلات التي يجب أن تتوافر في الحاكم المسلم الذي يتولى قيادة المجتمع، مثلما يتناقض مع المبدأ الذي أكده عن ضرورة عدم استسلام المؤرخ (لغائلة الحاجة والهوى) الذي يخرجه عن هدف (الإنصاف) في تدوين التاريخ.

وأخيراً، وعلى الرغم مما قيل في حق كتاب (أعمال الأعلام...) وعن جزئه الأول على الأقل، يبقى، أن ابن الخطيب قدم معلومات قيمة وجديدة وموثقة عن القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، باعتماده على الثقاة ممن عاصروا الحقبة ذاتها، وبما عرفه ومارسه باعتباره أحد صناع القرار أو القريبين منهم، في مملكة غرناطة أو في المغرب، فجاء سرده التاريخي للمعلومات عن تاريخ مصر والشام والحجاز في عصر المماليك يحمل الكثير مما هو جديد، لكونه شاهداً على العصر. وعليه، يعد كتابه (أعمال الأعلام...) أحد أهم المصادر التاريخية عن القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، وهذا بحد ذاته يعد تميزاً للمؤرخ والموسوعي الكبير لسان الدين ابن الخطيب، وسيبقى أحد الرموز التاريخية والحضارية العملاقة في تاريخنا العربي الإسلامي وحضارته.

الهوامش

* اعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب لسان الدين ابن الخطيب: (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام) الذي حققه: سيد كسروي حسن بأجزائه الثلاثة، ونشرته دار الكتب العلمية في مجلد واحد، وصدر في بيروت عام 1424هـ/2002م.

(1) للتفاصيل عن حياة ابن الخطيب العامة والسياسية، ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، شرح وقدم له يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية (بيروت، 2003م)، ج4؛ لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام...، ج2؛ عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1960م)، ج7؛ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الفكر، (بيروت، 1986) ج5، 6، 7؛ محمد عبد الله عنان، لسان الدين ابن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1968). نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1987م).

(2) ابن الخطيب، اعمال الاعلام...، ج2، ص276–272.

(3) عنان، لسان الدين بن الخطيب، ص180–150.

(4) المقري، المصدر السابق، ج1، ص85.

(5) عنان، لسان الدين ابن الخطيب، ص166–165.

(6) عنان، المصدر السابق، ص167–165.

(7) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص37–25؛ عنان، المصدر السابق، ص248–247.

(8) ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج1، ص346.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص28.

(10) المصدر نفسه، ج1، ص37.

(11) تشتمل المجموعة التاريخية لمؤلفات ابن الخطيب على الكتب الاحد عشر: (الاحاطة في اخبار غرناطة)، (التاج المحلّى في مساجلة القدح المعلّى)، (الكتيبة الكامنة فيمن لقيته من شعراء المائة الثامنة)، (اللمحة البدرية في الدولة النصرية)، (رقم الحلل في نظم الدول)، (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)، (طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر)، (الاكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر)، (عائد الصلة)، (الاماطة عن وجه الاحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة)، (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام).

(12) عنان، لسان الدين، ص247.

(13) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ...، ج1، ص346.

(14) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص40.

(15) ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج1، ص41.

(16) عنان، لسان الدين...، ص216، 220.

(17) ابن الخطيب، المصدر السابق، المقدمة، ج1، ص27.

(18) عنان، لسان الدين، ص218.

(19) عنان، نهاية الأندلس، ص146.

(20) المصدر نفسه، ج1، ص55.

(21) المصدر نفسه، ج1، ص56.

(22) المصدر نفسه، ج1، ص53.

(23) المصدر نفسه، ج1، ص56.

(24) المصدر نفسه، ج1، ص26.

(25) المصدر نفسه، ج1، ص56.

(26) المصدر نفسه، ج1، ص56.

(27) المصدر نفسه، ج1، ص56.

(28) سورة يوسف، الآية 111.

(29) لسان الدين، المصدر نفسه، ج1، ص270.

(30) المصدر نفسه، ج1، ص273.

(31) المصدر نفسه، ج1، ص59، 65، 66، 68.

(32) المصدر نفسه، ج1، ص85.

(33) المصدر نفسه، ج1، ص69، 70، 71، 77، 83، 85، 91–90، 105.

(34) المصدر نفسه، ج1، ص103.

(35) المصدر نفسه، ج1، ص107–105.

(36) المصدر نفسه، ج1، ص73.

(37) المصدر نفسه، ج1، ص112.

(38) المصدر نفسه، ج1، ص113.

(39) المصدر نفسه، ج1، ص123.

(40) المصدر نفسه، ج1، ص 122.

(41) المصدر نفسه، ج1، ص 141.

(42) المصدر نفسه، ج1، ص 148.

(43) المصدر نفسه، ج1، ص 145.

(44) المصدر نفسه، ج1، ص 164.

(45) المصدر نفسه، ج1، ص 125.

(46) المصدر نفسه، ج1، ص 146

(47) المصدر نفسه، ج1، ص147.

(48) المصدر نفسه، ج1، ص192.

(49) المصدر نفسه، ج1، ص192.

(50) المصدر نفسه، ج1، ص195.

(51) المصدر نفسه، ج1، ص197–196، 201، 203، 204.

(52) المصدر نفسه، ج1، ص208.

(53) المصدر نفسه، ج1، ص218، 220، 222، 226، 227، 230.

(54) المصدر نفسه، ج1، ص226.

(55) المصدر نفسه، ج1، ص276–260.

(56) المصدر نفسه، ج1، ص276–260.

(57) المصدر نفسه، ج1، ص283.

(58) المصدر نفسه، ج1، ص275، 277، 279.

(59) المصدر نفسه، ج1، ص 212، 220، 286، 294.

(60) ذكر محقق كتاب أعمال الأعلام، سيد كسروي حسن عن حاجي خليفة وكتابه (كشف الظنون...) في الجزء الثاني وفي الصفحة 994، أن كتاب (السكردان) هو لابن حجلة أحمد بن يحيى التلمساني المتوفى سنة 776هـ، ألفه سنة 757هـ للملك الناصر محمد بن قلاوون، ويتألف من مقدمة وستة ابواب. انظر، ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج1، ص288، 290، 291، 309، 311، 312.

(61) المصدر نفسه، ج1، ص291.

(62) المصدر نفسه، ج1، ص296.

(63) المصدر نفسه، ج1، ص301.

(64) المصدر نفسه، ج1، ص309.

(65) المصدر نفسه، ج1، ص343.

(66) المصدر نفسه، ج1، ص310.

(67) المصدر نفسه، ج1، ص299–198، 310–306، 338–326.